

اللغة العربية

بين مؤيدتها ومعارضها

لدكتور ياسين رفاعية

(بيروت)

للذب عنها ، وللدفاع عن باطلها ، بلغة فصحي ، وأسلوب أقرب الى السلامة ! ولا أريد أن أهاجم أحدا ولا أن أشتم أحدا ، ولا أن أبحث عن النيات التي تحتجب وراء الدعوة لأنني رجل أقدس حرية الفكر وأعتبر الحرية ملازمة للإنسانية . لكنني أرى أن من حق الذين يؤمنون بالفصحى ، أن يعلنوا إيمانهم ، وأن يدعوا اليه وأن كان في رأيي غير محتاج .

هؤلاء الذين يدعون الى تغليب العامية قوم جهلوا تاريخ اللغة العربية أو أنهم قرأوه لكنهم لم يفهموه ، أو أنهم فهموه لكنهم لم يحفظوه ، أو أنهم حفظوه ثم نسوه . هذا التاريخ على طوله ، وتقادم عهده واتساع عمره المبارك ، ليس معقدا ، ولم يتخلله شيء من الاحاجي والالغاز ، بل هو واضح لكل من يقرأ ويكتب . فكما أن فريقا من الامم المغلوبة يعشق اللغة العربية والى فيها وخدم ثقافتها ونشر لواءها ، وأعلى أعلامها ، كذلك كان فريق آخر من الامم المغلوبة يسعى الى افسادها ، أو الى تغليب لغته القومية عليها . فقد تعاقب الفرس والترك والتتر والديلم وغيرهم ، فماذا صنعوا ؟ انني لا اذهب الى التدليل بعيدا عن تاريخنا المعاصر . حكم الترك البلاد العربية ، وبخاصة سورية ولبنان ، خمسة قرون ، باسم الخلافة الاسلامية ، ولم يكتفوا بالفتح العسكري ، انما فرضوا ايضا لغتهم التركية لغة رسمية في الدواوين . دع ما حاول حزب الاتحاد والترقي في الفترة الاخيرة من حياة الامبراطورية العثمانية من جهد لتتريك العناصر العربية خاصة ، لكن خمسة قرون لم تصنع شيئا من طود اللغة

كانت الحكاية قديمة ، منذ طالب سعيد عقل بإحلال الحرف اللاتيني محل الحرف العربي وإبدال اللغة العربية باللغة اللاتينية وهو الشاعر الذي شهرته اللغة العربية . . وطبعاً لم تنجح دعوة سعيد عقل ، وقام بعده من يدعو الى العامية اللبنانية لغة للتخاطب والكتابة في آن واحد . وطبعاً كانت تلك الدعوة اقليمية حاقدة ، وكان لها مشجعون فلم يفسحوا المجال للرد على هذه الدعوات ومع ذلك ، لم تمض شهور حتى خمدت هذه الحركة ، وظل لواء العربية مرفوعاً . . وصدر مؤخرا للدكتور كمال الحاج كتاب « في فلسفة اللغة » والذي يعتبر بمثابة أبرز دفاع عن الفصحى ، وقد صدر الكتاب عن دار النهار للنشر ، وللنهار أيضا ملحق ادبي يصدر اسبوعياً ويرأس تحريره الشاعر انسي الحاج وامانة تحريره الشاعر شوقي ابي شقرا ، وفي هذا الملحق دارت المناقشات التي سنحاول تقديمها في هذا المقال . وكان اول المتكلمين ايلي ابو خليل ، الذي دعا ، تعليقا على كتاب الدكتور الحاج ، الى احلال العامية اللبنانية محل الفصحى ، ثم دارت مناقشات حامية نبداها بما كتبه الاديب السوري الاستاذ ظافر القاسمي في ملحق النهار فقال : « الدعوة الى تغليب العامية على الفصحى وجعلها لغة الخطاب والكتاب ، قديمة يرجع تاريخها الى الحقبة التي انطلق فيها العرب من الجزيرة ، وفتحوا بلاد فارس والروم ، وامتزجوا بأمم كثيرة اخرى كالهند والاحباش والصين والصقالبة والترك وغيرهم ، وكانت الدعوة قائمة دائما على اختلاف في الاسباب وتعدد في الاساليب ، واليوم يتحرك منها الجامد ، ويستيقظ الراقد ، وتجد اقلاما مشرعة

العربية . ذلك ان نفوذ العثمانيين لم يكن ينحصر عن البلاد العربية حتى رايت اللغة العربية في المدارس والدواوين كأنها لم تشهد خمسة قرون من الطغي والحجاب .

وبعد ان يضرب الاستاذ القاسمي الامثال على

قوة اللغة العربية وثباتها يتحدث عن الشاعر سعيد عقل اول من دعا الى ترك اللغة العربية فيقول : ولست اعجب للكسالى الذين لايجون ان يتعبوا في تعلم هذه اللغة ، وفي دراسة قواعدها ، حتى ينطقوها نطقا صحيحا وحتى يكتبوها في اسلوب سليم . هؤلاء اذا دعوا الى العامية معذورون لانهم يحبون ان يستسلموا الى الراحة ، وان يتعدوا عن التعب . لكنني اعجب لرجل عظيم ، قرشي الديباجة ، يقول الشعر برواء عباسي ساحر ، بمجد الامويين فيقول :

« واذا ما ضاقت الشام بهم

الحقوا الدنيا بستان هشام »

تقرا شعره المرعب ، فيخيل اليك انه فر من جبل ابي نواس الى هذا الجبل ، او انه انتقل من شاطيء دجلة الى قم الجبل الاخضر ، اعني به سعيد عقل ، لا استطيع ان اجد تفسيراً للدعوتة الى العامية وبلا احرف اللاتينية ايضا . لقد استمع له الكثيرون مثلي وهو يدافع عن رايه في التلفزيون ، فما اقنع لانه كان يدافع عن العامية بالفصحى ، او بلغة هي اقرب الى الفصحى ، وليصدقني سعيد عقل لو انه وضع بالعامية آلاف الكتب لضاعت كلها ولما حفظ الناس منها شيئا ، حتى في لبنان ، فما بالك في غير لبنان ؛ لكن هل يعرف سعيد عقل الملايين الذين يحفظون قصيدته « سائليني يا شام » او قصيدته « قرأت مجدك في قلبي وفي الكتب » .

ويختم الاستاذ القاسمي رده على هذه الدعوة بالاشارة الى نقطتين هامتين ، الاولى : ان دعاة العامية يشبهون العامية باللغات الاوروبية التي انفصلت عن اللاتينية او اليونانية ، وفي رأبي ان هذا قياس مع الفارق . ذلك ان اللغات الاوروبية قامت على دعائم عديدة احدها اللاتينية ، ويكفي ان ترجع الى معاجم الاشتقاق « اليتمولوجي » لترى ان كثيرا من الالفاظ يوناني او فارسي او روماني او انكليزي او عربي او غيره ، واحصى العلماء اصول الالفاظ في كل لغة وليس هنا مجال التفصيل .

ثم ان هذه اللغات قدمت الى الاداب الانسانية زوائج جعلت منها لغات حية ، تناقلها الناس جيلا بعد جيل ، وما زالت مصدر اعتزاز لا قوامها .

ونشأ من هنا ان اصبحت هذه اللغات بعد استقلالها ذات كلاسيكية معروفة ثابتة ، يدعو فريق الى التحرر منها ، ويدعو فريق الى التمسك بها .

فأين هذا كله من العامية اللبنانية .. ؟

الثانية : لك ان تسميها دينية ، ولك ان تسميها اجتماعية ، اذا كنت ممن يفسرون الدين بأنه ظاهرة اجتماعية . وفي الاحتمالين انها امر واقع لا خلاف فيه بين احد ، ذلك ان نصف سكان لبنان من المسلمين او اقل بقليل ؛ او اكثر بقليل ، فليس هذا مهما فهؤلاء المسلمون يتعبدون في كل يوم خمس مسرات بقصر السور او بطوالها . . ومن ذاق بلاغة القرآن ، الذي قال عنه الوليد بن عقبة : « ان له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وان له لصولة في القلوب ليست بصولة مبطل » لا يمكنه ان يهبط الى العامية ، كما لا يمكنه ان يكتب باللاتينية ، ومالي احصر تدوق بلاغة القرآن بالمسلمين وحدهم ؛ ان الذين اعرفهم من اخواني واصدقائي المسيحيين ، والذين يستظهرون بعض القرآن ، ويزينون به احاديثهم ، وكتاباتهم ، لا يعدون ، ولو سألتهم : هل تعدلون عن هذه اللغة الى غيرها لاجابوك بالسلب .

وفي نظر عديد من المؤرخين المعاصرين ، وبعضهم من الفرنسيين ، ان هذا هو السر الخالد في بقاء العربية في شمال افريقيا عامة وفي الجزائر خاصة .

اللغة كائن حي ، ما في ذلك شك ، خاضع للتطور ولا بد له من مسابرة حاجات العصر ، لكنه بما زود به من عناصر الحياة ، بأبي المسخ ، كما يابى الفناء .

وفي نفس العدد هناك مدافع عن العامية واقليمية لبنان ، وان الشعب اللبناني امة ليس لها علاقة بالعرب ويدافع عن سعيد عقل وهذا المدافع هو كمال وديع رحال يقول : الحرف المستعمل حاليا في كتابة العربية هو هندي لايمت الى العربية بصلة ، ولا اظنك - يقصد الدكتور زكي النقاش الذي دافع عن العربية في احد مقالاته - ترى سببا وجيها يحملنا على التمسك بهذا الحرف الغريب ما دام اصبح عاجزا عن ان يقوم بدوره على الوجه الاكمل ويؤدي المقاطع الصوتية المطلوبة من لغة حديثة متطورة ، زد ان الحرف اللاتيني حرف لبناني الاصل من جليل كما يقول العلامة ريتان والعلامة حتى .

وفي رد آخر من الكاتب السعودي جميل مقلان كتب يرد في هذا المجال على ايلي ابي خليل قائلا: انا لست عالما باللغات ، لكن باستطاعتي ان اقول ان المشاكل التي يراها الكاتب لا تحدث الا لمن درج لسانه

منذ الطفولة على لغة غير العربية الفصحى في تعليمه ، كما يحدث لي عندما أحاول أن أعبر عن افكاري بالكتابة الانكليزية رغم انني تعلمتها منذ المرحلة ما بعد الابتدائية الى الآن ..

ثم من زعم ان العامية العربية في لبنان او مصر او العراق او الحجاز غير مفهومة تماما بالنسبة الى اختلاط افراد هذه الاقطار بفرد آخر ، انا افهم لهجة اللبناني والسوري والمصري والعراقي والتونسي ، ويمكنني التفاهم معه ، قد تختلف بعض المسميات انما ليس الى الحد الذي يمنع معه التفاهم ، كما هي حالي مع انسان غير عربي ..

كما ان اللغة العربية اثرت في غيرها كالتركية والفارسية والاردية (في الهند) والسواحلية (شرق افريقيا) والاندونيسية (الجاوية) حتى اللغات الاوربية، فليست هي ميتة او عاجزة .

وأشار الكاتب الى ان لبنان سينحسر لو اعتمد اللهجة العامية كلفة رسمية له ، وعدد الاسباب كما يلي :

أ - لان لبنان بلد صغير وسكانه قلائل ، فاستعماله عاميته سيحصر نشاط فكره واشعاعه في نطاق ضيق ولشعب صغير لايتجاوز المليونين وبذا ستخسر معظم الصحف والمجلات ودور الطباعة اللبنانية .

ب - ان لبنان يمثل التفاعل الخصب المنفتح مع الفكر الاسلامي والمسيحي واستعماله العامية سيحرم العالم العربي ويحرمه ثمرة هذا التفاعل .

ج - اذا احد فكر ان عامية لبنان ستمتدد او تنتشر فهو واهم ، فلو كان للهجة ان تنتشر وتنافس الفصحى ، لانتشرت العامية المصرية لعدد سكانها وموقعها الممتاز بين بلاد العرب .

د - ان التيار العالمي اليوم يندفع نحو كيانات اكبر واوسع واشمل ، نحو ما يوجد لا ما يفرق ، لهذا انشئت الامم المتحدة ولذا انشئت السوق الاوروبية المشتركة وجامعة الدول العربية ومنظمة الوحدة الافريقية وكتلة افريقيا وآسيا الى آخر هذه الجهود التجمعية . فكيف نحاول ، نحن العرب ، ان ننكمش وننقل فقط تجاه جيراننا العرب الاقربين في الوقت الذي نفتح على الابعدين كالفرنسيين والانكلوسكسون وسواهم . ان هذه هي الرجعية الحق .

وانه لما يعد كسبا لانسان ان يتقن لغة يتكلمها حوالي مئة مليون ترتبط بهم مصالحه الاقتصادية وروابطه الاجتماعية ، وليس من المعقول ان هؤلاء كلهم امة من الهمج ولغتهم متحجرة والا لانقرضت كالفينيقية والفرعونية الميتة والاشورية او حتى لغات سبا وحمير من عرب الجنوب قبل الاسلام . فلا تنتشر لغة الا اذا كانت للامة رسالة وحضارة ، ولقد كانت للاسلام ولا تزال ، رسالة الامة العربية الى العالم ، ولا اعتقد ان دور الاديان والروح قد انتهى ، بل انه يتبلور ويعود بروح وتفسير جديدين للكون والحياة واما الحضارة فمكانة العرب فيها معروفة ..

ويختتم الكاتب مقاله قائلا : اخيرا - على هذا البعض الذي لا تعجبه اللغة العربية ان يتبنى اية لغة يريد الا ان يرمي اللغة العربية واهلها بالموت فيقول: « لماذا لم تظهر فيها الروائع الخالدة منذ مئات السنين » . فهذا في ايسر تحليل له هو جهل للتاريخ القريب ، فالامة العربية والتاريخ العربي لم يندثرا ويطوهما الزمن ويلفهما النسيان كفينيقية مثلا . الم يعلم الكاتب بانثر قصة الاسراء والمعراج ورسالة الفجران للمعري في الشاعر الايطالي دانتى؟ الم يعلم بتأثير «الف ليلة وليلة» في ادب العصور الوسطى في اوربا؟ الم يعلم بتأثير الفلسفة الاسلامية في القديس توما الاكويني؟ وبتأثير قصة «حي بن يقظان» في قصة روبنسون كروزو لديفيو ، وغير ذلك من الروائع .

ثم هل اللغة العربية محدودة بحدود لبنان؟ اليس بنوها منتشرين من المحيط الى الخليج ورمي لغتهم بالجمود والموت وعدم الابداع ايسر شيء يجرح كبرياءهم ويزعجهم ان يصدر ذلك من لبنان الذي يحبونه ويكونون له كل ود وخير والذي يعتبرونه اخا وشقيقا لهم ، لا يفرقون بين كل بنيه ويحترمون معتقدات اهلهم ويودون منهم في المقابل احترام مشاعرهم وترانهم وتحري الدقة والموضوعية والانصاف فيما يكتبون ما داموا هم الاكثر انفتاحا والاكثر توعية « كما يقول الكاتب الفاضل .

وطبعا هناك مقالات اخرى اتخذت جانب ايلي ابي خليل ولكنها كلها كانت واهية لم تملك التبرير الكافي للصمود .. وقد اوقفت المناقشات مؤخرا الا ان الدكتور كمال الحاج صاحب الكتاب الذي اثار هذه الضجة نشر مقالا في الملحق الادبي تحدث فيه عن الفلسفة البنائية الجديدة لصاحبها كلود ليفي ستراوس، وكان الدكتور الحاج اراد ان يرد على جميع هؤلاء بطريقة غير مباشرة فاورد في هذا المقال قوله : نقدنا

الاسماع واشد في القلوب . ان اوجز كان مرضيا مقنعا ، وان أسهب كان مفهما مفسرا ، وان أمر كان واعظا مرشدا ، وان حكم كان عادلا مستقيما ، وان أخبر كان موجبا مثبتا ، وان بين كان هاديا الى الصراط المستقيم . والكلام اذا كان مرصوفا بمثل هذه البلاغة ، منعوتا بمثل هذا الاشراف النافذ ، علت رتبته فتكويبت النفس به ، وتسامت . ذلك هو الاعجاز ، تركيز نهائي في وجه الزمان ، وثبات على الدهر ، وافحام يدل على انه سر الهي مكتوم . هو ديمومة السماء في زوال الارض هو خرق للعادة المألوفة ، هو ارتفاع فوق الطوق البشري يروزه العقل مرة ، ولا يزنه ، الا يرجع خاسئا مرجوحا ، متى كان الكلام بهذه المثابة من الخطف والانجذاب كان هو ذاته التدليل على وجود الله .

ايضا وايضا لسليمان الحكيم « ما كان فهو الذي سيكون ، وما صنع فهو الذي سيصنع فليس تحت الشمس شيء جديد . »

ان الحقائق التي اتت بها البنيانية ليست بجديدة، جميعها قيلت بشيء واحد يعتبر فيها ، الهنتها للغة التي اتخذتها اشارة الى ان الله غير موجود . الاسلام قطع الطريق على الالحاد الستراوسي ، لقد جاءت لغة القرآن الدليل الاكبر بالاعجاز على ان اللغة لا تصلح علميا ان تكون برهانا على الالحاد . وهكذا تتساقط منذ اليوم قواعد الالحاد الذي يعمل ستراوس على رفعه فوق نموذج اللغة ..

من هنا اراد الدكتور الحاج ان يؤكد سرمدية اللغة العربية وايضا على انها البرهان الوحيد على الايمان ووجود الله .. أفما يكفي كل هؤلاء الذين يحاربونها هذا الدليل المجيد ؟ .

للالحاد الستراوسي ، المزمع ان يكون ينطلق من اللغة ذاتها ، انجيل يوحنا سبق ستراوس الى اعطاء اللغة تلك المكائنة البنيانية .

« في البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله » .

هذا قول يوحنا ، وهو قول بنياني حق بالاضافة الى انه قول لاهوتي حق « الكلمة » لفظة دلت فسي الفلسفة اليونانية على العقل الالهي الذي نظم العالم . وقد اخذها يوحنا بمعنى الكلمة الجوهرية الازلية .

ثم هناك الاسلام ، لقد سبق ستراوس ايضا الى الهنة اللغة العربية اذ جاءت وحدها الدليل على وجود الله . لذلك صمدت في وجه الزمن الهروب ، اللغسة العربية اصمد لغات الارض في سابقات الزمن ولاحقته، في الماضي والمستقبل ، فريدة بين اللغات في الازلية والابدية ، لكانها السرمدية ذاتا ، هذا بالتمام ما نصل اليه اذا طبقنا اقوال ستراوس عليها ، نصل الى انها بدون شك اللغة التي تناول الله بها الانسان من لسانه . ذلك ان الله كلمة ، والكلمة هي الله . من هنا اعجاز القرآن الكريم الذي هو ابتهاج في الفاظ ، هذا هو التعبد يوم يبلغ في الوجدان كل مبلغ ، فتنبعث من النفس الايات الهادية كأنها اجواق منغمة ، في مثل رنين الجرس . لذا كان محمد صموتا لاينطق في نبراته الا مرتلا . « ورتل القرآن ترتيلا » .. « واذكر اسم ربك، وتبتل اليه تبتيلا » .

لقد دفع محمد بسليقة الكلام الى حد لم يعد معه الانسان من بعده بحاجة الى كلام ابلغ وانفسد . وهكذا احلولى قوله ، وعذب ، وراق ، وكان ارجى في